**علم النفس الاجتماعي**

**المحاضرة الرابعة- الكورس الثاني**

**سيكولوجية الجماعات (نظرية الهوية الاجتماعية والطبيعة السيكولوجية لها، التصنيف الاجتماعي)**

**نظرية الهوية الاجتماعية والطبيعة السيكولوجية لها:**

نشأت هذه النظرية على يد كل من "تاجفيل"[[1]](#footnote-1)\* و "تيرنر" Tajfel & Turner 1979 من أجل فهم الأسس النفسية للتعصب بين الجماعات، عبر تحديد الحد الأدنى من الشروط التي تقود افراد جماعة معينة للتعصب لصالح جماعتهم الداخلية ضد الجماعات الأخرى الخارجية ويؤرخ Hogg 2001 أن "تاجفيل" قدم تنظيراته في العام 1972، ثم صاغها بعد ذلك تحت عنوان "نظرية الهوية الاجتماعية" بالاشتراك مع "تيرنر" في العام 1979، ليفسرا كيف تستمد الذات معناها من السياق الاجتماعي الذي يحدث في العلاقات بين الجماعات، وليفسرا كيف يحدد التصنيف الاجتماعي مكان الفرد في المجتمع، ومحددينِ معنى "الجماعة الاجتماعية" بمصطلحات تصنيف الذات، بإنها ((مجموعة من الأفراد يدركون أنفسهم على أنهم أعضاء في الفئة الاجتماعية ذاتها)). وهؤلاء الأفراد يعرّفون أنفسهم ويصفونها ويقوّمونها بمصطلحات تلك الفئة، ويطبقون معايير السلوك فيها على أنفسهم.

وقد أرست النظرية أسسها، حسب "تيرنر" 1982م مع بدايات ثمانينات القرن الماضي، بوصفها نظرية اجتماعية للجماعة، إذ أكملت عمليات تعريف الذات المرتبطة بالهوية الاجتماعية، وحاجة الأفراد إلى تقدير الذات وإلى التميز الإيجابي. وكانت جامعة "بريستول" Bristol في بريطانيا هي المركز لبحوث الهوية الاجتماعية التي أجراها علماء النفس التجريبيون البريطانيون والأوربيون، وطلبة "تاجفيل" وزملاؤه. لكن تزامن وفاة "تاجفيل" في العام 1982، مع التطورات السياسية في بريطانيا، وانتشار المعرفة الاجتماعية الأمريكية، أدى إلى حدوث انهيار سريع في مركز "بريستول"، أعقبته هجرات أسهمت في أن تصبح أبحاث الهوية الاجتماعية أكثر تنوعاً، وأخذت شعبية كبيرة في أوربا واستراليا وأمريكا الشمالية. ثم شهدت التسعينات انطلاقة في الاهتمام بهذه النظرية، إذ جرى تطبيقها في الكثير من الموضوعات المقاربة، كأبحاث المسايرة الاجتماعية، والمعايير، ونفوذ الجماعة، والتعصب، والأفكار النمطية، وبروز الهوية، ودوافع الجماعة، ومفهوم الذات؛ الأمر الذي جعلها تفرض نفوذها ليس على علم النفس الاجتماعي فحسب، ولكن أيضاً على علم النفس التنظيمي، والسريري، والصحة النفسية، والعلوم السياسية واللغوية.[[2]](#footnote-2)

إن السؤال الجوهري المتعدد الأبعاد الذي انطلقت منه موضوعة "الهوية الاجتماعية"، صاغه "تيرنر"1987 Turner بالآتي:((هل يتضمن سلوك الجماعات عمليات اجتماعية أم سيكولوجية؟ وهل إن هذا السلوك مختلف عن الخصائص الفردية التي يتميز بها الأفراد؟ وهل الجماعة موجودة في خيالنا أم إنها واقع حقيقي؟ وهل الجماعة حقيقة واقعة بالطريقة الحية الملموسة نفسها التي يكون بها الأفراد واقعيين وحقيقيين؟ )).

وقد جاءت الاجابة عن هذا السؤال على نحو متدرج طبقاً للتطورات المنهجية والنظرية التي مر بها تأريخ علم نفس الجماعة. فقد برزت أهمية "الجماعة" في أفكار "لوبون" Le Bon 1896 و"ماكدوجال" McDougall 1920 و"فرويد" Freud 1922 الذين عدّوا "العقل الجماعي" معطىً شعورياً بدائياً وغير مُسَيطَرٍ عليه، محاولين تفسير عدم العقلانية والتطرف اللذين تتصف بهما الجموع. كما سلط "فونت" Wundt 1916 الضوء على تلك "المنتجات العقلية" Mental Products التي يخلقها المجتمع في الحياة البشرية، والتي يصبح من المتعذر تناولها في ضوء الوعي الفردي فحسب ما دامت تقتضي مقدماً وجود سلوك متبادل بين الناس. وأكد أن الظاهرات الجمعية، كاللغة والدين والتقاليد والأساطير، ظاهرات اجتماعية لا يمكن فهمها في ضوء علم نفس يدرس الفرد معزولاً عن الجماعة. أما "دوركهايم" Durkheim 1898 فجزم بأن القوى المجتمعية تسمح بانبعاث المعاني الجمعية التي تطغي بقوتها على أي نزعات فردية.[[3]](#footnote-3)

إن الوعي الجماعي والشعور المشترك بالانتماء للجماعة هو الذي يشكل العامل النفسي الأهم في تعريف أي تكتل بشري أو فئة اجتماعية بوصفها جماعة لها هوية مشتركة بالمعنى النفسي لمفهوم الهوية الاجتماعية. كما إن السؤال: ((لماذا يصنف الأفراد أنفسهم في جماعات اجتماعية؟)) يشبه في الواقع السؤالَ: ((لماذا الناس يأكلون ويتنفسون؟)) فتصنيف الفرد للناس أو الحيوانات أو الألوان أو الأصوات إلى فئات أو جماعات، يعد عملية معرفية أساسية تكيفية تجري تلقائياً بهدف اختزال تعقيدات العالم إلى فئات يمكن استيعابها وفهمها. ودون هذا التصنيف، فإن سيل المثيرات اليومية الجارف سيتجاوز قدرة البشر على معالجة المعلومات.

ترى النظرية أن بروز الهوية الاجتماعية لدى الفرد يعتمد على ثلاثة آليات نفسية متسلسلة، هي: "التصنيف"، و" التماهي" ، و"المقايسة"". وإن الفرد لا يمتلك ذاتاً شخصية واحدة فحسب، بل ذواتاً متعددة بعدد الجماعات التي ينتمي إليها. فالسياقات الاجتماعية المختلفة قد تحفّزه على التفكير والشعور على أساس ذاته الشخصية أو العائلية أو الوطنية. ويكافح الأفراد لتحقيق مفهوم إيجابي عن ذواتهم عبر إجرائهم لمقايسات مؤاتية بين جماعتهم والجماعات الخارجية ذات الصلة. إلا إن المقايسات غير المؤاتية تدفعهم لتجنب هويتهم السلبية أو التخلص منها عبر ثلاث ستراتيجيات، هي: "الحراك الفردي" أي انفصال الأفراد عن جماعاتهم السابقة بهدف تسلق السلم الاجتماعي والانتقال إلى جماعات أعلى مكانة؛ أو "الابداع الاجتماعي" أي محاولة الأفراد تغيير عناصر المقايسة الموقفية من أجل الحصول على مقايسات أخرى لصالح جماعتهم؛ أو ""التنافس الاجتماعي" أي تنافس أفراد الجماعة الداخلية مباشرة مع الجماعة الخارجية لإنتاج تغيرات اجتماعية حقيقية في الموقف النسبي للجماعتين لصالح جماعتهم. وتعد الستراتيجية الأولى فرديةً فيما الأخريان جمعيتين. ويوجد عاملان يحددان نوع الاتجاهات والسلوكيات التي يمكن أن تنجم عن الهوية الاجتماعية السلبية، هما: الشرعية المُدرَكة، والاستقرار المُدرَك للنظام الاجتماعي القائم.[[4]](#footnote-4)

ويلخص "تاجفيل" و"تيرنر" مقولاتهما الأساسية على النحو الآتي:

1. يكافح الأفراد لتعزيز تقديرهم لذواتهم والمحافظة على هذا التقدير، إذ يسعون للحصول على مفهوم ايجابي عن الذات. ولذلك فإنهم يسعون إلى إنجاز هوية اجتماعية ايجابية.
2. إن عضوية الأفراد في جماعات معينة، تأتي مصحوبة بتضمينات ايجابية أو سلبية القيمة. فالهوية الاجتماعية للفرد تستمد ايجابيتها أو سلبيتها من التقويمات التي يجريها لجماعته وللجماعات الخارجية الأخرى.
3. يتحدد تقويم الفرد لجماعته، عبر مقايستها اجتماعياً بجماعات أخرى معينة في ضوء صفات وخصائص ذات قيمة. فالمقايسات الأيجابية بين الجماعات الداخلية والخارجية تولّد شعوراً عالياً بالهيبة Prestige (أي هوية اجتماعية ايجابية)، فيما تولد المقايسات السلبية شعوراً واطئاً بالهيبة (أي هوية اجتماعية سلبية).
4. عندما تغدو الهوية الاجتماعية غير مُرضية، يتجه الأفراد إما إلى مغادرة جماعاتهم الداخلية والانتساب إلى جماعات أخرى أكثر إيجابية، و/ أو إلى العمل على جعل جماعاتهم الداخلية أكثر إيجابية.

**التصنيف الاجتماعي**

عرف Turner & Tajfel التصنيف الاجتماعي على انه " أداة معرفية تعمل على تقطيع وتقسيم وتنظيم البنية الاجتماعية لتمكين الفرد من اختزال الإشكال العديدة من النشاط الاجتماعي وتوجد وتعرف مكان الفرد في المجتمع" فالتصنيف هو عملية ضم للموضوعات والإحداث الاجتماعية معاً في مجموعات متكافئة مع لحاظ الأنشطة الفردية ونسق المعتقدات الفردية والتفاعل بين الفروق القيمية المشتقة اجتماعياً والآليات المعرفية للتصنيف هامة بشكل خاص في كل التباينات الاجتماعية بين (نحن) و (هم)، في كل التصنيفات الاجتماعية حيث يوجد التمايز بين مجموعة الفرد والجماعات الخارجية واكتساب الفروق القيمية هو جزء من العملية العامة للتنشئة الاجتماعية.

التصنيف الاجتماعي مبني على مبدأين أساسيين: أولهما أن الناس يبنون فهمهم للعالم الاجتماعي على أساس تمييز تصنيفي يحول المتغيرات المسـتمرة إلـى أصناف مستقلة أي أننا نفهم عالمنا بواسطة الأصناف (الفئات)، وثانيهما هو أننا نستخدم عملية تصنيف اجتماعي كوسيلة لتحديد مواقعنا ومواقع الآخرين في المجتمع. ويفيد التصنيف الاجتماعي في تبسيط الحوافز الاجتماعية المعقدة في بيئتنا تبسيطاً ذا معنى، الصياغة الكاملة لهذه الافتراضات ظهرت عندما نشر تاجفيل (Tajfel) دراسته الرائدة عام (1969) بعنوان "المظاهر المعرفية للتعصب" ركز فيها على عملية التصنيف الاجتماعي باعتباره الإلية المعرفية الأساسية. فالتصنيف: هو عملية وضع الناس وبضمنهم أنفسنا على شكل فئات، ويعد تصنيف شخص ما بأعتباره مسلماً او أنثى أو جندي طرقاً لتعريف هؤلاء الناس. وعلى نحو مشابه يرتبط إدراكنا الذاتي مع التصنيفات التي ننتمي إليها، وتبين تجارب علم النفس الاجتماعي بأن الناس يصنفون أنفسهم وأشخاصاً آخرون إلى فئات بشكل سهل وسريع. والتصنيف الاجتماعي يقوم على افتراض أن الأفراد يميلون إلى تبسيط بيئاتهم الاجتماعية المعقدة وجعلها ذات معنى ويستعملون العمليات المعرفية فيصنفون بيئتهم الاجتماعية بالطريقة نفسها، التي يصنفون بها عالمهم الفيزيقي فينظمون بيئاتهم الاجتماعية في فئات اجتماعية ذات خصائص مميزة، وكنتيجة للتفاعل بين المعلومات المستلمة من العالم الخارجي وعملية تنظيمها تحدث عملية التصنيف إلى فئات وبما أن العمليات المعرفية الأساسية يستخدمها الناس لتبسيط وتنظيم وإسباغ المعنى على بيئتهم الاجتماعية.[[5]](#footnote-5) فلابد من وجود استراتيجيات معرفية يتم من خلالها التعامل مع هذا العالم المعقد وإحدى الطرائق لتبسيط العالم هو تصنيف الأشياء. فالتصنيف يفيد في تنظيم الأفكار والتكلم عنها. ويعتبر التصنيف عملية معرفية يستخدمها الناس لفهم الأشياء والأحداث، ومـن خلال هذه العـملية يسـتطيع الناس أن يتخذوا قراراً لمعرفة الأشياء المتشابهة والأشياء المختلفـة.

1. \* - استندت النظرية إلى أعمال "تاجفيل"Tajfel 1969 المبكرة في الادراك الاجتماعي والتعصب، إذ تمكنت من دمج عمليات التصنيف Categorization ، بعمليات المقايسة الاجتماعية، بدافعية تعزيز الذات Self – Enhancement Motivation، بمعتقدات الأفراد عن العلاقات ما بين الجماعات، في إطار واحد قادر على تفسير سلوك ما بين الجماعات، وكيفية نشوء الذات الجمعية Collective Self، أي الهوية الاجتماعية. [↑](#footnote-ref-1)
2. - زايد، أحمد (2006). سيكولوجية العلاقات بين الجماعات. الكويت: سلسلة عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. ص 11-15–17، 29. [↑](#footnote-ref-2)
3. - نظمي، فارس (2009). الحرمان النسبي والهوية الاجتماعية وعلاقتهما بسلوك الاحتجاج لدى العاطلين عن العمل أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد. ص110. [↑](#footnote-ref-3)
4. - مصدر سابق، ص 146. [↑](#footnote-ref-4)
5. - دكت، جون (2000): علم النفس الاجتماعي والتعصب، ترجمة عبد الحميد صفوت، دار الفكر العربي، القاهرة. ص171. [↑](#footnote-ref-5)